

أ: مراد قبال

جامعة خميس مليانة

المقاومة المسلحة في إقليم متيجة

(مدينة البليدة نموذجاً) 1830-1842

المقدمة:

اشتعل لهيب المقاومة الشعبية منذ الوهلة الأولى التي وطأت فيها أقدام الغزاة الاستعماريين الفرنسيين أرض الجزائر، فما أن انهار الحكم المركزي في مدينة الجزائر (يوم 5 جويلية 1830م)، حتى أخذ شيوخ القبائل والزوايا من الأعيان والعلماء على عاتقهم مهمة تنظيم صفوف الشعب الجزائري، وشحذ هممه للذود عن أرضه وعرضه ودينه، وكان لهذا التحرك مفعوله في تنظيم الكفاح المسلح، فلقد قرر عرب البادية من الفلاحين، وعمال الأرض، ورؤساء القبائل، ورجال الدين المقاومة، ومنع تقدم الجيش الفرنسي خارج مدينة الجزائر. ومن الطبيعي أن يكون أول من اصطدم بالعدو خارج المدينة هم سكان سهل متيجة، الممتد من الساحل إلى جبال الأطلس، حيث واجهت حملات الغزو الإستعماري الفرنسي المتكررة لمدينة البليدة، والتي استهدفت إخضاعها خلال أكثر من عقد، مقاومة بطولية من طرف أبناءها وأبناء إقليم متيجة، تحت قيادة البطلين "محمد ابن زعموم" و"الحاج علي السعدي"، فبالرغم من نجاح القوات الفرنسية في اختراق أسوار البليدة أكثر من مرة، كانت الأولى يوم 25 جويلية 1830م، والتي لم تكلل بالنجاح، حيث طردت منها شر طرد، استمرت المقاومة بالرغم من اختلال موازين القوى العسكرية والحضارية حتى الثالث من شهر ماي من سنة 1838م، إثر معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والجنرال الفرنسي بيجو، غير أن الفرنسيين الذين نكثوا المعاهدة بعد ذلك لم يهتئوا في المدينة سوى في عام 1842م، نتيجة استمرار هجومات المقاومين عليهم، ولقد كان لموقع مدينة البليدة - عند سفح

الجل - أهميته الكبيرة في تلك المقاومة، مما يبرز حكمة ودهاء مؤسسها سيدي أحمد الكبير في اختيار الموقع الملائم لبنائها.

1-أسباب المقاومة:

- يمكن حصر أسباب هذه المقاومة فيما يلي:
- رفض سكان متيجة عامة وسكان البليدة خاصة للاحتلال الفرنسي الذي بات يهددهم، لاسيما بعد سقوط مدينة الجزائر.
- الأضرار التي لحقت بسكان العاصمة جراء الاحتلال، حيث صودرت الأملاك الخاصة والعامة، واستبيحت المساجد والأعراض... خاصة وأن أعداد كبيرة منهم لجأت إلى البليدة عقب سقوطها.
- محاولة الجيش الفرنسي التوسع خارج مدينة الجزائر نحو سهول متيجة، الغنية بثرواتها الزراعية والحيوانية.

2-أهداف المستعمر الفرنسي من احتلال البليدة:

- التوسع خارج مدينة الجزائر التي بات محاصرا فيها منذ سقوطها بيده.
- الأهمية الاقتصادية والجغرافية والعسكرية لمدينة البليدة سواء في إقليم متيجة أو في طريق الجنوب نحو التيطري.
- تأمين الطريق نحو المدية -عاصمة إقليم التيطري- لضمها وقمع المقاومة فيها بقيادة مصطفى بومزراق
- فض الحصار والمقاطعة الاقتصادية التي فرضتها القبائل الجزائرية على المستعمر، مما أدى إلى ندرة المواد الغذائية وغلاء أسعارها في مدينة الجزائر.

3- الحملات العسكرية الفرنسية لاحتلال مدينة البليدة ومقاومتها:

أ- الحملة الأولى:

بعد احتلال فرنسا مدينة الجزائر، أصبحت مدينة البليدة القريبة منها تحت رحمة القوات الفرنسية، فأمام الاختناق الاقتصادي، والعزلة السياسية التي وجدها

الفرنسيون في مدينة الجزائر، حاول القائد العام الفرنسي "دي بورمون"⁽¹⁾ أن يفك الحصار، ويجرب حظه العسكري، فخرج يوم 23 جويلية 1830م⁽²⁾، على رأس حملة عسكرية متكونة من حوالي 2000 من المشاة، وبعض مئات من الخيالة، وبعض قطع المدفعية نحو مدينة البليدة الرابضة عند قدمي الأطلس الشامخ⁽³⁾.

إجتماع البرج البحري وتنظيم حركة الجهاد والمقاومة:

علمت قيادات الريف -المتيجي- بخروج "دي بورمون" نحو البليدة، فاجتمعت في مؤتمر واحد في البرج البحري -شرق مدينة الجزائر- في نفس اليوم الذي خرج فيه "دي بورمون" -أي 23 جويلية 1830م-، والذي كان اجتماعا جماهيريا بكل معنى الكلمة، فقد وفد إليه: عدد كبير من الناس، منهم الراجلون ومنهم الراكبون، ومنهم قواد ورؤساء الأوطان والقبائل العديدة في المنطقة. (كان إقليم دار السلطان -وسهل متيجة جزء منه-، يتكون خلال أواخر العهد العثماني من خمسة أوطان وهي: وطن بني خليل، ووطن الخشنة، ووطن السبت (أو موزاية)، ووطن بني موسى، ووطن يسر).

¹ هو لويس أوغست فكتور دي شاز الملقب بالكونت دي بورمون. ولد في 2 سبتمبر 1773 في مقاطعة فرنسي عين وزيرا للحرية في 23 ماي 1825 بعد أن اختاره الملك شارل العاشر لمهمة قيادة الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر، لكونه صاحب تجربة في الميدان العسكري. كلف من طرف الملك الفرنسي بقيادة الحملة العسكرية الفرنسية ضد الجزائر في 11 أفريل 1830. أصبح مارشال فرنسا في 14 جويلية 1830. لقب بالخائن لكونه فر من جيش نابليون بونابرت أثناء معركة واترلو عام 1814م. كان من دعاة الملكية الرجعية لذلك قرب الملك البربوني شارل العاشر. لم يتمتع بنتائج الحملة على الجزائر رغم قيادته لها ونجاحه فيها، فبمجرد قيام ثورة 1830 التي أطاحت بالملك شارل العاشر، حتى استدعته حكومة الملك لويس فيليب في 18 أوت 1830 وعينت مكانه اللواء كلوزيل. توفي في 27 أكتوبر 1846 بقصره الموجود في مسقط رأسه.

² Colonel Trumelet: Blida, recites selon la légende, la tradition et l'histoire, A-JORDAN, Alger, 1887, T V, pp 115-137.

³ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال -، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 86.

كان من بين الشخصيات البارزة التي حضرت هذا الاجتماع الشيخ محمد ابن زعموم⁽¹⁾، والحاج سيدي السعدي⁽²⁾، وأعيان من مدينة الجزائر، منهم ابن كانون، كما حضر كذلك ثلاثة من علماء المدينة البارزين من بينهم الشيخ حسن القلعي.

ولقد كانت قيادة قوات الاحتلال تعلم بموعد هذا الاجتماع، ولقد سمحت لبعض العلماء بالحضور على أمل أن يسعوا إلى إقناع الحاضرين بمهادنة الفرنسيين وقبول الأمر الواقع⁽³⁾.

تقرر على إثر هذا الاجتماع ما يلي:

- إعلان الجهاد ضد "الكفرة الغزاة".
- استمرار الحصار والمقاطعة الاقتصادية لمنع الفرنسيين من التموين من

¹ يكتب تارة "ابن زعمون" وتارة أخرى "ابن زعموم"، وقد اخترنا الأخير لوجوده في حتمه الرسمي. وحياة ابن زعموم السياسية مضطربة، إذ نجد له أدوارا مختلفة، ولكنه خلال هذه الفترة ما يزال على رأس المقاومة في سهل متيجة. وكان زعيما لقبيلة فليسة العتيبة، وأصبح صاحب نفوذ كبير في إقليم الجزائر للمقاومة الشديدة التي أبدأها في وجه تقدم العدو =

= أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 93.

وأنظر أيضا: سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر...، ص 86.

² من عائلة دينية ثرية لها زاوية قرب سيدي عبد الرحمن الثعالبي، في هذا الوسط الديني المحافظ ترعرع الحاج السعدي، في سنة 1827 أدى فريضة الحج بقي مدة عامين بالمشرق وأثناء عودته زار مدينة ليفورنيا والتقى بالداي حسين بعد نفيه. التحق الحاج السعدي بصفوف المقاومة في متيجة بعد أن رفض دخول مدينة الجزائر وهي تحت السلطة الفرنسية.

انظم الحاج السعدي إلى محمد بن زعموم، واستغل نفوذه الروحي وعلاقاته مع جل شيوخ الزوايا ورجال العلم في المنطقة، حيث اشترى حصانا وأخذ يتصل بالشيخ ويحرضهم على الجهاد، فكان بحق الزعيم الروحي لمقاومة متيجة، عينه الأمير عبد القادر خليفة له على متيجة ما بين 1835-1837، توفي سنة 1843.

³ جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1994، ص 106.

الأسواق، مثل سوق علي، وبوفاريك، والبليدة، هذا الأسلوب الذي أعطى ثماره، بارتفاع أسعار المواد الغذائية بسبب ندرتها، حتى نفذ زاد الفرنسيين، فلا خضر ولا ألبان ولا لحوم متيجة توفرت في المدينة، فاشتاقوا قطعة لحم، التي لم يجدوها إلا في القطط الهائمة من حولهم⁽¹⁾. ورغم التحذير الذي أرسله الشيخ "محمد ابن زعموم" إلى الجنرال "دي بورمون" يحذره عواقب القيام بحملة على أوطان ومدن متيجة، ويدعوه في نفس الوقت إلى عقد معاهدة ترسم من خلالها العلاقات بين سكان متيجة والجيش الفرنسي في العاصمة، إلا أن الجنرال الفرنسي لم يعبأ بهذا العرض، حيث تمكن من الوصول إلى البليدة واحتلالها، وذلك يوم 25 جويلية 1830م⁽²⁾، معتقدا أن الأمور سهلة، ولكنه فوجئ بهجوم منسق، شارك فيه آلاف الجزائريين من سكان البليدة وأوطان متيجة، وأجبروه على الدفاع عن نفسه، ثم الفرار أمامهم، مخلفا وراءه على الأقل 15 قتيلا و43 جريحا، بالإضافة إلى خسائر معنوية⁽³⁾ فادحة⁽⁴⁾.

تعتبر هذه المعركة الأولى التي خاضها الجيش الفرنسي بعد احتلاله العاصمة، وهو أول انتصار تحققه المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، فقد أظهرت المواجهة مشاعر العرب الحقيقية، فقد ألقى الفرنسيون عصا الترحال عندما شعروا بالأمن،

¹ إبراهيم مياسي، "مقاومة متيجة تحت لواء الأمير عبد القادر"، محاضرة أقيمت خلال أسبوع تاريخ متيجة عبر العصور، بقاعة محمد التوري، البليدة، ربيع 2002م، ص 05.

² يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الأولى، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1980، ص 11.

وأنظر أيضا: هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الجزء الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ، ص 136.

³ تذكر المصادر أيضا أن مما بالغ في إهانة دي بورمون أن بلدية طولون كانت قد خصصت فندقا، وجعلته تحت تصرفه أثناء سفره إلى الجزائر، وعندما عزل من وظيفته ووصل إسبانيا منفيا، لحقته مذكرة من نفس البلدية، تحبزه بأن عليه أن يدفع مبلغ ألف وخمسمائة فرنك أجرة الفندق الذي استعمله !.

⁴ سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 30.

لما كان يبدو من الاستقبال الودي الذي خصهم به سكان المدينة، التي خرج زعماءها للقائهم، وجالوا بسرور خلال حداثتها الجميلة، ولكن فجأة نزلت عليهم كتائب من العرب والقبائل من الجبال المحيطة، وهم يصرخون صراخا يصم الآذان، وبدأوا هجماتهم في عنف شديد. وبسرعة تجمع الفرنسيون وصمدوا بشجاعة، وفي اليوم التالي انسحبوا إلى مدينة الجزائر في نظام محكم⁽¹⁾.

وعن قوات المقاومين يتحدث الضابط الفرنسي "نيل جوزيف روبان" في مذكراته ودراسته حول "تاريخ أهل الزاوة" قائلا: "لقد لوحظ لأول مرة نوع من التنظيم في صفوف هؤلاء المتوحشين، لما كنا أمام البليدة قابلنا جيش ابن زعموم على شكل مستقيم تقريبا، المشاة متمركزين في الجهة الجبلية مشكلين الميسرة، والفرسان على اليمين..."⁽²⁾.

وبعد الهزيمة عاد "دي بومون" لاهثا إلى العاصمة، يمسخ عرق الصيف وعرق الهزيمة والخوف، ولم يفكر أثناء بقية أيامه في الجزائر (حوالي شهر آخر)، في معاودة التسرب إلى سهل متيجة⁽³⁾ لاحتلال مدنه وأوطانه.

كان لهذا الانتصار أثره الإيجابي ليس في نفوس سكان متيجة فحسب، بل وحتى وسط السكان الحضر بالعاصمة، إلى درجة أن الجيش الفرنسي بدأ يستعد لمواجهة اضطرابات داخل المدينة. ومنذ وقوع هذه المعركة تغير موقف الباي مصطفى بومزراق⁽⁴⁾، فبعدما أعلن ولاءه للفرنسيين تراجع عن موقفه يوم 21 أوت، وأعلن

¹ شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 50.

² Notes historiques sur la grande kabylie de "Nil joseph ROBIN: Africaine, N46, 1906, p213-p262. 1830-1851 »; in Revue

³ سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 30.

⁴ تولى ولاية إقليم التيطري من 1819 إلى 1830م بلقب (الباي)، وكان شجاعا حازما حسب روايات المعاصرين. حضر بنفسه على رأس جيش ولايته معركة اسطاوالي. وبعد هزيمة سيدي خالف، عينه الباشا

الحرب ضدهم⁽¹⁾، حيث كتب إلى "بورمون" محمدا له اليوم الذي سيقود فيه ضده 20000 رجلا، ويرميه هو وجنوده في البحر⁽²⁾.

ب- الحملة الثانية:

في شهر أوت 1830م تولى الجنرال "كلوزيل"⁽³⁾ الحكم في الجزائر، خلفا للقائد العام "دي بورمون"، حيث قرر قيادة حملة ثانية على مدينة البليدة، وأخرى ضد المدينة، لتكسير الحصار من جهة، ورد الاعتبار للقوات الفرنسية بعد الهزيمة الأولى وتأديب الباي مصطفى بومزراق من جهة ثانية⁽⁴⁾.

لقد كان "كلوزيل" يعرف جيدا أن سلفه "دي بورمون" قد فشل في احتلال المدينة، لذلك عزم على فعل شيء يثبت للجزائريين قوة الفرنسيين، ويعيد بعض معنويات الجيش الفرنسي المنهارة، غير أنه لم يكن يعلم بأنه سوف يذوق فيها أول كؤوس العلقم، التي تجرعها من جاء قبله ومن جاء بعده، ممن فكروا في احتلال البليدة على يد المقاومين المجاهدين.

حسين قائدا للجيش كله، ولكنه لم يستطع أن يحقق أي نصر، وبعد دخول العدو مدينة الجزائر أعلن الالتزام بالاتفاق المبرم بين الداوي ودي بورمون، وقد أبقاه هذا في مكانه (بايا على التيطري)، ولكنه = سرعان ما أعلن الحرب على العدو بعد معركة البليدة. وادعى بومزراق لقب الباشا لنفسه بعد رحيل الداوي حسين، وراسل أحمد باي بقسنطينة، ودعاه لطاعته، ولكن هذا رفض الاعتراف به، وادعى الباشوية لنفسه. وقد حارب بومزراق جيش كلوزيل أيضا، فعزله هذا وعين بدله مصطفى ابن الحاج عمر، وأخذ بومزراق أسيرا إلى الجزائر، ولم يسع بومزراق إلا الرضى بالنفي، فاختار الإسكندرية حيث مات في تاريخ غير معروف.

¹ سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 35.

² تشرشل، مصدر سابق، ص 50.

³ ولد يوم 12 ديسمبر 1772 في ميريبوا بفرنسا، وأعيد تعيينه للمرة الثانية حاكما عاما على الجزائر، تولى عدة وظائف، عينته حكومة الملك لويس فليب قائدا عاما على الجزائر مرتين الأولى من 12 أوت 1830 إلى 21 فبراير 1831، والثانية ما بين أوت 1835 وفبراير 1837 برتبة مارشال، وهو صاحب سجل حافل بالجرائم البشعة في حق الشعب الجزائري، توفي في 21 أبريل 1842 بسكوريو بمنطقة قارون العليا.

⁴ سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 35.

خرجت حملة "كلوزيل" من مدينة الجزائر يوم 17 نوفمبر 1830م⁽¹⁾، متكونة من حوالي 7000 جندي و ضابط⁽²⁾، وكانت قيادتها في يد ضابط يدعى "بوايه"، وأبى "كلوزيل" إلا أن يرافق الحملة بنفسه، لتصل إلى البلدة في اليوم الموالي (أي 18 نوفمبر)، واحتلها يوم 19 نوفمبر بعد اشتباك عنيف. يذكر الرحالة الألماني "فاغنر" في كتابه "رحلات 1841م"، أن المعركة وقعت بعد أن وجه الجنرال الفرنسي مارقا إيطاليا يدعى "يوسف"، إلى القائد العربي ليقول له على لسانه: "إني أحب أن أنام اليوم في البلدة!"، فكان جواب القائد العربي: "وأنا أحب أن أحول بين الفرنسيين وبين النوم فيها!"⁽³⁾.

وبعد احتلالها عبر "كلوزيل" عن روح التعصب الديني، وروح الانتقام من الجزائريين الذين هزموا "دي بورمون"، فاحتل مسجد المدينة⁽⁴⁾، -أي مسجد سيدي أحمد الكبير-، وأطلق العنان لجيشه يطارد السكان حيثما كانوا، وتعقبهم حتى دخل غابات الجبال المجاورة. وكان السكان قد أظهروا التراجع، كما فعلوا مع سلفه "دي

¹ حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقدم وتعرب وتحقيق محمد العربي الزيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص 247-248.

² Trumelet: op.cit, Tome V, pp 115-137.

³ فون مالتسان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص 136.

⁴ اعتدى المستعمرون الفرنسيون على هذا المسجد، وكان أول ذلك أثناء الحملة ضد المدينة على يد كلوزيل سنة 1830، فقد هاجم الفرنسيون المسلمين في المسجد نفسه بعد التجاؤم إليه، وفي حملة لاحقة كان الحاكم العام نفسه الماريشال فاله (1837-1841)، هو الذي سلم الجامع إلى الأسقف ديوش، فحوله هذا إلى كنيسة كاثوليكية، وحضر الحفلة التي رفع فيها الصليب على منارة الجامع، والغريب في الأمر أنهم جاؤوا بستة من العرب ليحملوا إليهم هذا الصليب الضخم من المصهرة التي صهر فيها الصليب، ثم لكي تتخذ الحفلة طابعا رسميا ودينيا جيء بالجنود الفرنسيين فحملوا الصليب إلى أعلى الجامع، وثبتوه هناك على ضوء شعلة كان يحملها العرب.

أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 77.

بورمون"، قبل أن ينقضوا على المعتدين. وقد اعتبر كلوزيل ذلك فيما يبدو نوعاً من الرياضة لجيشه الذي ظل محاصراً ومحروماً من التحرك عدة شهور (جويلية-نوفمبر)، فأطلقه وراء ضحاياه كما تطلق كلاب الصيد وراء صيدها، ومن ثمة لا نستغرب أيضاً أن نجد "بول آزان" مؤرخ الجيش الفرنسي يقول: "أن كلوزيل قد أمر الجيش أيضاً أن يجمع أثناء ذلك الحبوب واللحوم". ومن سيجمع ذلك؟ طبعاً من منازل المقاومين، الذين رفضوا الاحتلال، ولجأوا إلى الجبال، على أن أولئك المقاومين سيقتنون "كلوزيل" و"بوايه" وبقية الجيش الفرنسي درساً لن ينسوه، حتى لقد كاد القائد غير المحنك أن يفقد صوابه، وكان ذلك الدرس القاسي سبباً في إقدام حكومة باريس على عزله⁽¹⁾.

بعد أن أحكم "كلوزيل" قبضته على المدينة، أقام فيها حامية عسكرية صغيرة تتكون من 600 رجل⁽²⁾ بقيادة العقيد "رولير"، متجهاً بمعظم قواته لاحتلال المدينة⁽³⁾، وكان ذلك في 21 من نفس الشهر. وبمجرد مغادرته لها، استعان جميع الجبلين ببعض من سكان البلدة، واستعدوا للهجوم على تلك الحامية، ولولا تعجيل القائد كلوزيل بالعودة لاستأصلوا هذه الحامية عن آخرها⁽⁴⁾، وكان ذلك في 26 نوفمبر من نفس السنة⁽⁵⁾.

ففي الوقت الذي كان فيه "كلوزيل" في المدينة، شن "الحسين بن محمد بن زعموم" هجوماً على الحامية الفرنسية المربطة في البلدة، بعد أن جمع فرساناً ومشاة من قبائل الخشنة، وبني صالح، وبني خليل، وبني ميصرة، وبني موسى، وقد

¹ سعد الله، الحركة الوطنية...، ص ص 35-36.

² سعد الله، محاضرات...، ص 86.

³ خوجة، مصدر سابق، ص ص 247-250.

⁴ Franc (j) :la colonisation de la Mitidja; paris, champion, 1928, pp

55-59.

⁵ سعد الله، محاضرات...، ص 86.

قسم رجاله إلى مجموعتين، اتجهت الأولى إلى البلدة، متخذة سفح الجبل طريقاً لها، بينما شقت الثانية طريقها وسط السهل، لتقطع المدد على الحامية قرب بوفاريك، وتمكنت هذه المجموعة الأخيرة من القضاء على عدد من الفرنسيين، كانوا يحملون المدد والذخيرة للحامية المتواجدة بالبلدة، واستحوذوا على سلاحها. ثم تابعت قوات "ابن زعموم" سيرها، إلى أن وصلت يوم 22 نوفمبر إلى البلدة، وشرعت في تطويقها، إلى جانب اعتمادها على أسلوب المناوشات⁽¹⁾، وفي 26 نوفمبر اقتحمت المدينة بحوالي سبعة إلى ثمانية آلاف مقاوم حسب المصادر الفرنسية⁽²⁾، لقد كانت هذه المعركة من أبرز المعارك بين الوطنيين وجيش العدو، وكان القتال قد بدأ على الساعة السادسة صباحاً، وضاعت السبل بالضابط الفرنسي "رولير" في غياب نجدة كلوزيل الذي كان في المدينة، فالتجأ إلى مسجد المدينة الذي كان قد جعله مستشفى واحتله، كما احتل المقبرة المجاورة⁽³⁾، واشتد القتال بين الطرفين، حيث دارت معركة حامية من شارع إلى شارع، ومن دار إلى دار، مات من جرائها عدد كبير من الحامية الفرنسية، ومن السكان أيضاً⁽⁴⁾.

وهنا تصدق شهادة الجنرال بيجو في حق الجزائريين بقوله: "إن العرب كلهم أهل حرب وبأس، وكلهم فرسان مغاور، يتقنون أيما إتقان امتطاء صهوات الخيل، ولكل واحد منهم فرس وبنديقة، وكلهم يخوضون غمار الحرب، من الشيخ الهرم البالغ من العمر ثمانين سنة إلى الطفل البالغ خمسة عشرة سنة"⁽⁵⁾.

¹ مياسي، مرجع سابق، ص 07.

² سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 38.

³ نفسه، ص 38.

⁴ سعد الله، محاضرات...، ص 86.

⁵ فرحات عباس، ليل الاستعمار، نقله إلى العربية أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دون تاريخ، ص 62.

وعندما انهارت معنويات الجيش العدو، وفقد جنوده شجاعتهم، لجأ قائد الحامية الفرنسية إلى الخدعة، والمتمثلة في إيجاد ثغرة تمكن من خلالها مع فرقة من جنده من الالتفاف وراء سور المدينة، أين باغت قوات "ابن زعموم" من الخلف، مما أربك المقاومين الذين ظنوا أن قوات كلوزيل قد داهمتهم⁽¹⁾، كما استعمل "رولير" المدفعية، وضرب بها المهاجمين من الخلف فتراجعوا، ثم هاجمتهم بقية الحامية الملتحجة إلى المسجد والمقبرة من الأمام، حتى لقد استشهد منهم حوالي ثمانمائة شهيد، وفر الباقون حوالي الساعة الحادية عشر، بعد أن دام القتال خمس ساعات، أما من جانب العدو فقد قتل تسعة عشر، منهم ضابطان، وجرح خمسة وخمسون⁽²⁾.

وهكذا كانت المقاومة عنيفة وقوية، ولولا المدفعية لأبيدت الحامية عن آخرها. ويظهر جليا أن نوعية الأسلحة التي بحوزة الفرنسيين، كان لها الأثر السلبي على المقاومين، الذين كانت عدتهم تنحصر في السيوف والحراب، وبعض البنادق التقليدية ذات النمط العثماني، أو على الشاكلة التي كانت قبائل فليسة تشتهر بصناعتها، أو التي كانوا يستحوذون عليها من العدو الفرنسي، وتلك التي كانت تهرب من مدينة الجزائر بواسطة الأعيان الحضر. ورغم تفوق العدو من حيث العدد والعدة، فإن ثقة الشعب والمقاومين بالله، والإرادة الصلبة، والإيمان بعدالة القضية، والدفاع عن الشرف، ورفع الظلم، كانوا أقوى من أسلحة العدو الحديثة، وجيوشه المنظمة، وخططه المدروسة.

وفي 27 من نفس الشهر وصل "كلوزيل" نفسه إلى مدينة البليدة، قادما من حملته الفاشلة على مدينة المدية عاصمة إقليم التيطري، وقد وجد كلوزيل مدينة

¹ مياي، مرجع سابق، ص 07.

² سعد الله، الحركة الوطنية...، ص ص 38-39.

البليدة "مليئة بالبحث" على حد تعبير أحد الكتاب⁽¹⁾، عندها قرر سحب جنوده نحو مدينة الجزائر. ومما زاد في عمق مأساة "كلوزيل"، أن الخمسين مدفعيا الذين أرسلهم للبحث عن الذخيرة، قد فتك بهم المقاومون بالقرب من بوفاريك، حيث وجدهم أشلاء مبعثرة هنا وهناك⁽²⁾.

وكعادة الجبناء المنهزمين، لجأ كلوزيل قبل الانسحاب، إلى الانتقام من سكان البليدة الباقين، بعد انسحاب المقاومين إلى الجبال، إذ قام الجنود الفرنسيون بأعمال وحشية في هذه المدينة، وأحدثوا بها مجزرة رهيبة، لم ينج فيها رجال، ولا نساء، ولا أطفال. هناك من يذكر أنه قد تم تقطيع بعض الرضع على صدور أمهاتهم، ووقع النهب في كل مكان، ولم يستثن حتى الجزائريون الذين فروا إلى هذه المدينة، لينجوا من ظلم الحكومة الفرنسية، وليجدوا وسائل تمكنهم من العيش⁽³⁾.

ويورد "حمدان خوجة" إحدى المآسي الناجمة عن هذا الانتقام الممحي الوحشي بقوله: "لقد اضطر المسمى محمد بن سفطة إلى الهجاء إلى البليدة ليعيش فيها، وكانت مهنته كإسكافي لا تكفي لتوفير وسائل عيشه، وعيش امرأته وبناته الصغيرات الأربع، وقد كان يسكن دارا صغيرة، دخل إليها في أثناء الهجوم وأغلق الباب. إنه لم يكن يملك أي نوع من أنواع الأسلحة، ولم يكن معه سوى الأدوات التي يشتغل بها، وعندما دق الجنود الباب خرج إليهم صحبة زوجته، ولكن سرعان ما وجهت إليه طلقات عديدة أردته قتيلا، كما قتلت طفلة لها من العمر عامان، أما زوجته فقد كسرت ذراعها ونحبت الدار كلها ولما بقيت الزوجة المسكينة بدون مورد بعد أن كسرت ذراعها، وأصبح عليها أن تعول ثلاث بنات. توجهت إلى القائد الأعلى، ولكن شففته لم تزد على أنه أركبها بغلة، دون أن يضم جرحها

¹ سعد الله، محاضرات...، ص 86.

² سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 39.

³ خوجة، مصدر سابق، ص 248.

الذي ظل يدمي طيلة الطريق... إن هذه المرأة قد أصبحت تتسول بعد هذا الحادث⁽¹⁾.

ج- الحملتان الثالثة والرابعة:

رغم هذا الفشل الذريع، وجهت فرنسا حملات عسكرية أخرى، قصد إخضاع البليدة والقبائل المجاورة لها، ففي مارس 1832م استولى عليها الجنرال "بيرترين" من جديد، غير أن أهالي البليدة لم يلبثوا أن زرعوا بعد حين هذا النير الكريه⁽²⁾، ثم احتلها الدوق روفيقو⁽³⁾ في 20 نوفمبر 1832م، ونهبها⁽⁴⁾، وضيق على سكانها، لاتهمهم بتقدم يد العون إلى القبائل المناوئة لهم، غير أنه لم يلبث أن تخلى عنها.

4- مقاومة متبجة تحت قيادة الأمير عبد القادر:

ونتيجة الانتصارات التي حققها الأمير عبد القادر، وعقده معاهدة دي ميشال يوم 26 فيفري 1834م، واستيلائه على مدينة المدية، ثم تعيين ابن مبارك من عائلة الشيخ محي الدين خليفة له على مليانة، جعل ذلك أنظار المجاهدين تتجه نحو الأمير عبد القادر، وتعلق عليه آمالا عريضة، فلا غرابة أن ينضم إليه الزعماء الثلاثة "محي الدين - السعدي - ابن زعموم"، الذي أرسل ابنه "حمدان"

¹ نفسه، ص ص 247 - 250.

² فون مالتسان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص 136.

³ هو الجنرال سفاري دي روفيقو تولى أمور الجزائر ما بين 31 ديسمبر 1831م و مارس 1833م، وقد تولى مهمته خلفا لبرترين، وقبل أن يصبح قائدا عاما كان وزيرا سابقا للشرطة، تميزت شخصيته بالقسوة والظلم، وعرفت الجزائر على عهده مرحلة تميزت بسفك دماء الأبرياء والقتل الجماعي، وقد ارتبط اسمه كسفاح بمذبحة العوفية الرهيبة التي أبادها عن آخرها في 5 أبريل 1832م. فشله في إخماد نار المقاومة عجل برحيله عن الجزائر، حيث اضطرت حكومة لويس فيليب إلى عزله، وتعويضه بقائد عام آخر هو "الجنرال فرول"، والظاهر أن دماء الأبرياء وأرواحهم بقيت تطارده إلى أن أصيب بالجنون، بعد أن عانى من مرض سرطان اللسان، وقد مات بعد شهرين من عزله في شهر جوان 1833م.

⁴ فون مالتسان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص 137.

إلى الأمير للاتفاق حول السبل الكفيلة لدعم ونجاح المقاومة. فسارع الشيخ السعدي لمقابلة الأمير بالمدينة، حيث ولاه خليفة له على متبجة والجهة الشرقية، واستمر السعدي يؤجج نار المقاومة رغم الفتور الذي ساد على عهد الجنرال الكونت ديرلون الذي فشل في احتلال البلدية، واكتفى بإقامة الحصون الأمامية في الدويرة وبوفاريك، وبعد أن اشتدت المقاومة في الغرب الجزائري بقيادة "الأمير عبد القادر"، وانتصاراته على القوات الفرنسية في عدة مواقع، منها معركة المقطع في جوان 1835م، تراجعت وتيرة الحملات الفرنسية على البلدية⁽¹⁾، غير أن المناوشات بين المقاومين والفرنسيين، وسعي الفرنسيين إلى إحكام الخناق على البلدية، من خلال إقامة المعسكرات ومراكز المراقبة حولها تواصلت.

د-الحملة الخامسة: قام في أوائل أكتوبر 1835م، ستة آلاف مقاوم من

بينهم 300 إلى 400 فرد من قبيلة بني صالح، تحت قيادة خليفة مليانة "محمد بن علال"⁽²⁾ بمهاجمة المركز العسكري الفرنسي في بوفاريك، فرد الماريشال كلوزيل يوم 21 أكتوبر، بالذهاب إلى البلدية بـ 4000 جندي، وفتح أبوابها، وقدم الخبز لجيشه، كما قام بحرق دورها، ونهب أملاك سكانها، ثم عادت الحملة في نفس اليوم إلى بوفاريك، ودخلت مدينة الجزائر في اليوم الموالي⁽³⁾ - أي 22 أكتوبر-. كما أنه وفي 14 سبتمبر 1836م قام الجنرال "بروسار" بالتخلي عن المعسكر الفرنسي الموجود بشفة للتمركز أمام البلدية، ويحط الرحال بعسكره

¹ مياسي، مرجع سابق، ص ص 08-09.

² كان الخليفة محمد بن علال يجمع العديد من الصفات، له من الشجاعة و السياسة بمكان، لا يدركه أحد شأوه فيهما، وله وقائع = وحروب مع الفرنسيين في نواحي مليانة ومتبجة وشرشال تشهد له بذلك، وناهيك برجل جمع الله له بين الجهاد والشهادة، كما جمع له بين النسب و الحسب، ولما بلغ الأمير عبد القادر نعيه (سنة 1843)، صعب عليه، وكبر لديه، وولى ابن أخيه خليفة في موضعه، وهو السيد قدور بن علال.

أنظر: محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، الطبعة الثانية، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1964، ص 436.

³ Trumelet: op.cit, T V, pp 115-137.

خارجها، وفي يوم 15 من نفس الشهر تلقى معلومات، تفيد بأن كثيرا من القبائليين مستعدون لخوض الحرب، وفعلا ففي يوم 16 سبتمبر انتشر القبائليون بجداق وبساتين البليدة، مدعومين بالفرسان الحجوطيين، مهاجمين معا الثكنة الفرنسية⁽¹⁾، واتبع هذا العمل تحويل مجرى وادي سيدي الكبير، حتى لا تصل أي قطرة ماء للمخيم الفرنسي، مما اضطر القائد "بروسار" إلى تحويل مخيمه إلى وادي العلايق⁽²⁾. وفي 22 أكتوبر من نفس السنة قام مقاومون من بني صالح وغلالي، بهاجمة قوات الجنرال "بروسار" الذي كان يتمركز حينها في أولاد يعيش، ورد عليهم الفرنسيون بصعود جبال بني صالح، وإحراق بعض الديار والمساكن فيها⁽³⁾. وفي 8 نوفمبر من نفس السنة، اغتنم المقاومون فرصة ضعف القوات الفرنسية، وشكلوا جيشا من 1200 محارب من الحجوطيين وبني صالح، بقيادة "محمد بن علال"، وذهبوا لمهاجمة القوة الفرنسية الموجودة بأولاد يعيش، وفي 9 نوفمبر هاجموا المركز الاستعماري الفرنسي في بوفاريك، وفي نفس اليوم قام الجنرال "رابنال" بمغادرة مدينة الجزائر على رأس قوة تقدر بـ 2500 جندي، وعسكر بالدويرة، ووصل في اليوم الموالي إلى بوفاريك، وفي يوم 11 نوفمبر وصل إلى البليدة ليدها بالمدفعية⁽⁴⁾، غير أن سكان البليدة وبني صالح لاحقوا القوات الفرنسية إلى بوفاريك.

5- سقوط المدينة بيد المستعمر الفرنسي: وفي عهد الجنرال "دامريمون"⁽⁵⁾ - الذي خلف كلوزيل الذي قدم استقالته حين فشل في حملته على قسنطينة عام

¹ I.bid, pp 115-137.

² مياسي، مرجع سابق، ص 09.

³ Trumelet: op.cit, T V, pp 115-137.

⁴ I.bid, pp 115-137.

⁵ هو الكونت شارل ماري دونيس دامريمون ولد بـ "شومان" في منطقة المارن الفرنسية يوم 8 فيفري 1783. وفي 13 ديسمبر 1830 أصبح جنرالا، شن حملة على مدينة قسنطينة، وتولى هو شخصيا قيادتها بعدما وصل أسوار المدينة يوم 6 أكتوبر 1837 وأغار عليها بعد 6 أيام، وهو واقف يعاين الأمور بواسطة منظار،

1836م-، أكد بأنه سىتفرغ لاحتلال البلىة، فجمع قواته فى بوفارىك، وسار نحو البلىة فى 29 أفرىل 1837م، فحاصرها بعء أن قسم جيشه إلى ثلاث مجموعات: الأولى تحت قىاءة الجنرال "برو" متجها نحو جبال بنى صالح، والثانىة تحت قىاءة الجنرال "نغرى" متجها نحو الجهة الجنوبىة، عكس الجنرال "برو" الذى كان فى الجهة الشمالىة، والثالثة بقىاءة الكلونال "شوانبورغ" تقتحم المىة من الوسط⁽¹⁾. ورغم المقاومة استطاع الجنرال "دامرمون" دخول المىة، وأمر جيشه بقطع كل الأشجار والبساتىن، وقد كلفته العملىة خسائر بشرىة أجبرته على الانسحاب نحو بوفارىك⁽²⁾.

6- احتلال مىة البلىة ومعاهاة التافنة:

بتوقىع (معاهاة التافنة) فى 20 مای 1837⁽³⁾، بین "الأمىر عبء القاءر" والجنرال الفرنسى "بىجو"⁽⁴⁾، ألحقت البلىة بالأملاك الفرنسىة نهائىا⁽¹⁾، فدخلها

أصىب بشكل بالغ، سقط حىنها لىلفظ أنفاسه، ءون أن بمنع ذلك من سقوط قسنطىنة = فى ىء الجيش الفرنسى يوم 13 من نفس الشهر.

1 Trumelet: op.cit, T V, pp 115-137.

2 مياسى، مرجع سابق، ص 10.

3 جاء فى الماة الثانىة من هاءة المعاهاة ما ىلى: "تحتفظ فرنسا لنفسها فى إقلىم وهران بمستغانم ومازغان ونواحىهما: وهران وأرزىو ومنطقة أخرى مءةة كما ىلى: من الشرق بنهر المقطع والسباخ التى ىجرى فىها، ومن الجنوب مخط ىبءاً من السباخ المءورة مارا بالضفة الجنوبىة للبحىرة وممتءا إلى واءى المالح فى التجاه سىءى سعىء، ومن هاءة النهر إلى البحر سىكون تابعاً للفرنسىىن. أما فى إقلىم الجزائر فمىة الجزائر والساحل وسهل متىة مءوءوا من الشرق بواءى القءرة فصاعءا، ومن الجنوب بقمة السلسلة الأولى لجبال الأطلس الصغرى ممتءة إلى نحر الشلف بما فى ذلك البلىة ونواحىها، ومن الغرب بالشفة إلى جبل مازغان، ومنه فى خط مستقىم إلى البحر بما فى ذلك القلىعة ونواحىها سىكون منطقة فرنسىة.

أنظر: تشرشل، مصدر سابق، ص 117-302.

4 هو ءوماس روبرى بىجو وء فى 15 أكتوبر سنة 1784 بلىمونج، وماء بفرنسا بالكولىرا سنة 1849. ءولى بىجو الحكم فى الجزائر فى 29 ءىسمبر 1840 إلى 29 جوان 1847. سلك ءلال سنوات حكمه سىاسة القهر والعنف، والإباءة، والتءمىر، والتهجىر، والنفى، فى إطار الحرب الشاملة التى مارسها تجاه الجزائرىىن.

المارشال "فالي"⁽²⁾ يوم 3 ماي 1838م، و احتلها رسميا باسم حكومته⁽³⁾، وذلك بالرغم من محاولات شيوخ المدينة أمثال محمد بن عمروش، وبعض علمائها مثل سيدي محمد بن ابراهيم إقناع المارشال بعدم دخولها، لكنه لم يبال بذلك، وأصدر أوامره لاحتلالها⁽⁴⁾. غير أن جذوة المقاومة في المدينة والجبال والمناطق المحيطة بها استمرت، حيث يعترف الفرنسيون بأنهم لم يعرفوا الراحة والهدوء إلا عام 1842م.

الخاتمة:

لم يكن الاحتلال الفرنسي لمدينة البليدة بالأمر الهين، ولربما كان بدون جدوى، إنه لمن ضرب المحال أن يجرد شعب من ثرواته ويبقى مكتوف الأيدي لا يدافع عن نفسه خصوصا إذا كان شعبا أبياء، ذا أنفة وشهامة، وغيورا عن استقلاله وعن حرته، حارصا على كرامته وشرفه، وفي هذا الصدد قال الجنرال الفرنسي "كافينيكا": "كان لزاما علينا أن نقدر حق قدرها الولايات التي جرتها الحرب على العرب إلى يومنا هذا، إن العربي متمسك بأرضه أكثر مما نتصوره، وإن

¹ كانت البليدة محل شد وجذب بين الأمير عبد القادر والفرنسيين، وكان سبب ذلك سوء تفاهم الجانبين حول تفسير بنود الاتفاق المبدئي بينهما لوقف إطلاق النار وعقد السلام، والذي تجسد فيما بعد من خلال معاهدة الثافنة، وكعادة الأمير لجأ إلى مشاورة شيوخ القبائل الكبار، وزعماء الفرسان العسكريين، والمرابطون المحترمون، في مناقشة طويلة وعاصفة، آلت في النهاية إلى إقرار المؤتمرين بأغلبية كبيرة، أن الفوائد التي ستجنيها عامة الشعب من حالة السلام، تبرر التنازل عن البليدة إلى الفرنسيين، ما دام أن كل مسلم سيكون حرا في الانتقال من المناطق الخاضعة لفرنسا إلى المناطق الخاضعة للسلطان. أنظر: تشرشل، مصدر سابق، ص 116.

² ولد شارل سيلفان فالي valée في برين-لوشاتو بفرنسا يوم 17 ديسمبر 1773م، ترقى في الجيش وتولى وظائف هامة، واشترك في حرب بروسيا وإسبانيا وأحيل على الإيداع سنة 1830. عاد إلى الخدمة سنة 1834 وتمت ترقيته إلى رتبة مارشال بعد معركة قسنطينة الثانية في أكتوبر 1837. عين حاكما عاما بعد مقتل الجنرال دامرمون ومات يوم 15 أغسطس 1846.

³ فون مالتسان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص 137.

⁴ مياسي، مرجع سابق، ص 11.

ملكته منظمة أحسن مما يقال عنها، وفي هذا الباب إننا محتاجون إلى كثير من الدروس من طرف العرب"⁽¹⁾.

ويمكننا من خلال هذا البحث الخروج بجملة استنتاجات منها:

1- لم تصمد مدينة جزائرية في وجه الاحتلال الفرنسي كما صمدت مدينة البليدة (خمس حملات عسكرية كاملة)، حيث لم تتمكن القوات الفرنسية من احتلالها وضمها للسيطرة الفرنسية إلا بعد معاهدة الهدنة المعروفة تاريخيا بمعاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو.

2- ساهم الموقع الجغرافي للمدينة والواقعة عند سفوح جبال الأطلس المتيجي في تمكين المقاومين من الدفاع عنها، إذ سرعان ما يدحر المقاومون القوات الفرنسية ويطردونها منها.

3- أدى التحالف بين مختلف قبائل إقليم متيجة غير المسبوق تاريخيا -بين بطون من قبيلتي زناتة كني صالح وبطون من قبيلة صنهاجة كني خليل- إلى قوة وشراسة المقاومة، وذلك رغم الهمجية والوحشية التي قوبلت بها، وما مجزرتي البليدة وقبيلة العوفية -05 أفريل 1832م- إلا دليل بسيط على هذا الأمر.

السيليوغرافيا:

أولا: باللغة العربية:

1. بوعزيز يحيى، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الأولى، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1980.
2. تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

¹ عباس، مصدر سابق، ص ص 68-69.

3. الجزائري محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، الطبعة الثانية، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1964.

4. خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

5. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

6. سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.

7. سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

8. فون مالتسان هاينريش، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الجزء الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ.

9. قنان جمال، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1994.

10. عباس فرحات، ليل الاستعمار، نقله إلى العربية أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دون تاريخ.

11. مياسبي إبراهيم، "مقاومة متبجة تحت لواء الأمير عبد القادر"، محاضرة أقيمت خلال أسبوع تاريخ متبجة عبر العصور، بقاعة محمد التوري، البلدية، ربيع 2002م.

ثانياً: باللغة الأجنبية:

la colonisation de la Mitidja; paris, champion, 1-(j) Franc 1928.

Notes historiques sur la grande "Nil joseph: ROBIN 2- Africaine, N46, 1906, _ kabylie de 1830-1851 »; in Revue p213-p262.

3-Trumelet Colonel: Blida, recites selon la légende, la tradition et l'histoire, A-JORDAN, Alger, 1887, Tome V